

تعليقات ومناقشات

تقرير المفتي ابن عمار

ظروفه ونصه

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

التقرير الذي نقدمه هنا عثرنا عليه في قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٦٨٨٠، وهو بقلم المفتي أحمد بن عمار الجزائري الذي كان قد كتبه لكتاب ألفه الوزير حمودة بن عبد العزيز التونسي^(١) وتاريخ التقرير هو ١١٩٦هـ (١٧٨١م). وقد رأينا أن نضع بين يدي القراء هذا التقرير لما يمثله من أساليب البلاغة الموروثة عن المدرسة الأندلسية في بلاد المغرب، وهي المدرسة التي كان أحمد بن عمار من أواخر فحولها في الجزائر، وقبل إيراد نص التقرير رأينا، أن نعرف أولاً بابن عمار وزميله ابن عبد العزيز، ثم نعرف ببني تونس (على بن حسين) وابنه الذي تولى السلطة من بعده (حموده باشا).

أحمد بن عمار: عاش معظم حياته في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي). ولدينا عنه تواريخ محددة وأخرى ظنية. فنحن لا نعرف متى ولد، ولكننا نغلب أن يكون من مواليد مدينة الجزائر حوالي

(١) درسنا حياة أحمد بن عمار في كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج ٢، المؤسسة الوطنية للكتابة، الجزائر، ١٩٨٥، وكذلك كتاب (مختارات مجهولة من الشعر العربي)، ط ٢، بيروت، ١٩٩٢. وفي بحثنا عن الرحلات الحجازية المنشورة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية، ج ٢، ط ١، الرياض ١٩٧٩ ضمن سلسلة دراسات تاريخ الجزيرة العربية الصادر عن الندوة العالمية التي نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة الرياض ١٩٧٧.

وفي إجازته لمحمد خليل المرادي المنشورة في كتاب (تجارب في الأدب والرحلة)، الجزائر، ١٩٨٢. أما حمودة بن عبد العزيز فحياته مدروسة إلى حد كبير في المصادر الأتية: (الكتاب الباشي)، تحقيق محمد ماضور، تونس ١٩٧٠، و (إخفاف أهل الزمان) لأحمد بن أبي الضياف، ج ٧، تونس ١٩٧١، وأحمد عبد السلام (المؤرخون التونسيون)، تونس ١٩٩٢، انظر باقي المراجع في آخر هذا البحث.

١١١٩هـ (١٧٠٧م) ، وأنه في الغالب قد توفي في الحجاز بعد سنة ١٢٠٦
(١٧٩١) وأصله من العائلات الأندلسية المهاجرة إلى الجزائر بعد خروج العرب
والمسلمين من الأندلس. وقد تكون أسرته قد استقرت في مستغانم أو تلمسان
قبل انتقالها إلى مدينة الجزائر بعد أن أصبحت عاصمة للقطر كله في العهد
العثماني^(١).

أما التواريخ المعروفة من حياة ابن عمار فهي على التوالي: سنة
١١٥٩ (١٧٤٦) حين كتب تقریظاً شهد فيه على دراسة زميله عبد الرزاق بن
حمادوش على الشيخ أحمد الورززي الذي وفد على الجزائر من المغرب^(٢). وسنة
١١٦٣هـ حين ذكر ابن عمار أنه تبادل الشعر مع شيخه محمد بن محمد المعروف
بابن علي^(٣). وسنة ١١٦٦ (١٧٥٢) حين توجه لأداء فريضة الحج، وقد رافقه ابن
حمادوش والحسين الورثلاني صاحب الرحلة الشهيرة^(٤) وهناك تاريخان آخران
معروفان أيضاً، أولهما سنة ١١٨٠ (١٧٦٦) حين وجدناه متولياً لوظيفة الفتوى
المالكية، وهي الوظيفة التي بقي فيها إلى سنة ١١٨٤ (١٧٧٠)^(٥) وقد سجل السفير
المغربي أحمد الغزال أنه حضر درساً لابن عمار في الجامع الكبير بالعاصمة
سنة ١١٨٢ (١٧٦٨). وثانيهما سنة ١١٩٥ (١٧٨٠)، حين سجلت المصادر أن
أحمد بن عمار قد توجه إلى تونس "بقصد الاستيطان بها"^(٦) يغادرها ربما إلى
المشرق. والدليل على ذلك أننا لا نجد له تاريخاً لنشاطه في الجزائر بينما نرجح
من بعض المصادر أنه كان سنة ١٢٠٥ في الحجاز حيث وجدنا توقيعه في هذا

(١) هذا الرأي عبر عنه المرحوم المهدي البوعبدلي رسالة منه بتاريخ ١٩٨٢.

(٢) عن زيارة الورززي إلى الجزائر وظروفها والنقائه بعلمائها، انظر تحقيقنا لرحلة ابن حمادوش (لسان
المقال)، الجزائر، ١٩٨٣.

(٣) انظر مختارات مجهولة من الشعر العربي، ص ٣٩.

(٤) هي توبة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شبيب، الجزائر، ١٩٠٨.

(٥) البير ديفوكس A.Devoux المؤسسات الدينية في مدينة الجزائر، الجزائر ١٨٧٨، ص ١١٧.

(٦) إبراهيم السبالة (مباسم الأزهار) مطروح رقم ٢٦٠، المكتبة الوطنية، تونس.

التاريخ على الإجازة التي أجاز بها الشيخ محمد خليل المرادي صاحب (سلك الدرر) (١).

إن ثقافة أحمد بن عمار ثقافة أدبية ودينية عميقة كما تظهر في مؤلفاته. ويبدو أنه تلقى تعليمه محلياً، ولم يتلقه خارج الجزائر إلا في كهولته وبعد توليه الوظائف. ومن شيوخه الذين نعرفهم بالاسم: محمد بن محمد المعروف بابن علي (٢). وقد كان ابن علي من أصول عثمانية-أوروبية ومن الشعراء المجيدين أيضاً، وقد تولى الفتوى على مذهب الإمام أبي حنيفة (٣). ونعرف من جهة أخرى أن ابن عمار كان يحضر مجالس العلماء الوافدين على الجزائر مثل دروس أحمد الورززي المغربي. أما خارج الجزائر فلا تحدثنا الوثائق إلا على تتلمذه على الشيخ خليل المغربي في مسجد الحسين بالقاهرة (٤). ولا شك أن في كتاب ابن عمار (منتخب الأسانيد) أسماء الشيوخ الذين درس عليهم أو أجازوه (٥). ألف ابن عمار في عدة فنون، ومعظم تأليفه يعتبر في حكم الضائع، فكتابه (لواء النصر في فضلاء العصر)، وديوان شعره، ورحلته الحجازية كلها مفقودة باستثناء (نبذة) من رحلته المسماة (نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب) (٦). ومن كتبه المفقودة أيضاً (تاريخ علي باي) (٧) الذي سنتحدث عنه. وقد وجدنا بعض شعر ابن عمار ضمن المختارات التي اختارها بنفسه من أشعار ابن علي. أما كتبه الباقية فليست بذات شأن من الناحية الأدبية والتاريخية، ومنها

(١) انظر، إجازة ابن عمار للمرادي في كتاب (تجارب في الأدب والرحلة)، مرجع سابق.

(٢) ترجمنا له في الجزء الثاني من تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، فصل الشعر، وأيضاً في (مختارات مجهولة)، مرجع سابق.

(٣) كانت عائلته تلقب أيضاً بالعلاج، وهو لقب كان يطلق على من دخل الإسلام من الأوروبيين.

(٤) جاء ذلك في رحلة الورتلاني، مرجع سابق.

(٥) عن الكتاب الأخير، انظر عبد الحي الكتاني، (فهرس الفهارس). ج ١/١٢١-١٢٢. وهنا وهناك.

(٦) نشر النبذة محمد بن أبي شنب، الجزائر ١٩٠٣.

(٧) يقول ابن عمار عن هذا الكتاب وهو يتحدث عن علي باي "ونظمت في سلك هذا الملك السعيد... عقد ليه وتاج مفروق مما فتح الفتح العليم..." انظر (مباسم الأزهار)، مرجع سابق.

رسالته في مسألة وقف، وهي مطبوعة^(١)، ثم ثبته المعروف بمنتخب الأسانيد، وهناك نصوص أخرى أشار إلى بعضها عبد الحي الكتاني في فهرسه. ونعتقد أن أحمد بن عمار كان مقصوداً من زملائه ومعاصريه للإجازة والتفريط، ولدينا من ذلك إجازته للشيخ المرادي كما أنه من المعروف أنه أجاز تلميذه إبراهيم السبالة^(٢).

حمودة بن عبد العزيز: إذا كانت وظائف ابن عمار قد اقتصرت على الفتوى والخطابة فإن وظائف حمودة بن عبد العزيز قد شملت الوظائف السياسية والإدارية، إضافة إلى الكتابة والتعليم. وقد وصفته المصادر التي ترجمت له بأنه كان عارفاً بالسياسية والرياسة، وعلوم المنقول والمعقول، وأنه كان حسن المحاضرة فصيح اللسان عذب المجالس قوي القلم^(٣).

ولد حمودة بن عبد العزيز في تونس وتربى في عائلة تونسية مترففة، وقد درس على مشايخ في جامع الزيتونة، ومنهم والده ومحمد بيرم الأول ومحمد الماكودي، وتمكن في الفقه والأدب والتاريخ واللغة، وتعاطى الشعر، وتولى الوظائف الدينية والرسمية كما أشرنا.

وقد قيل أنه تولى التدريس بجامع الزيتونة وتخرج على يديه تلاميذ أصبحوا من علماء الوقت، كما قرأ عليه ولي عهد تونس حمودة بن علي باي (حمودة باشا). وكانت الخطوة الأولى له في سلم العمل الرسمي هي تكليف الباي له ابنه، فعلمه الحساب والتاريخ والنحو والصرف ثم قربه الباي إليه فزوجه ابنته أيضاً، وأسند إليه رئاسة الكتاب، ومنحه لقب وزير قلم الإنشاء. لكن هذا التفريط جعل حمودة بن عبد العزيز مستهدفاً للحساد والطامعين في الوصول

(١) طبعت ضمن رسالة في الرد على الوهابية لإسماعيل التميمي، تونس.

(٢) يبدو أنه أجازته بتونس أثناء زيارة ابن عمار لها. انظر (مباسم الأزهار) مرجع سابق، والسبالة من عائلة صفاقسية معروفة.

(٣) ابن أبي الضياف الإتحاف، ج ٧، ص ٢٣، عن حياة حمودة بن عبد العزيز، انظر مراجع الهامش الأول..

إلى السلطة. وقد ازداد دأله على تلميذه حمودة باشا منذ توليه السلطة بعد والده. فقد أقره الباشا في وظيفته وعهد إليه بتدريب الوزير يوسف صاحب الطابع على شؤون الدولة. وظل ابن عبد العزيز على هذه الحظوة والإدلال عند الباشا حوالي خمس سنوات، ثم حدثت أمور أدت إلى محاولة اغتياله ثم إلى نبذه ثم وفاته سنة ١٧٨٧.

ألف حمودة بن عبد العزيز عدة كتب، أبرزها (الكتاب الباشي) الذي أرخ فيه لعهد علي باي^(١) وديوان شعر^(٢) ورسالة في القبلة، ثم حاشية على وسطى السنوسي في العقائد وأخرى على كتاب في علم الكلام، وهي التي خصها ابن عمار بالتقريظ الآتي. ولكن هذه التأليف لا تدل على مكانة علمية باهرة. ويبدو أن سمعته كانت قائمة بالأساس على منزلته السياسية وطمع الطامعين في الاستفادة منه. ولكنه انتهى نهاية مأساوية. فقد قيل إنه سقط في عين الباي وأعين الناس ومات مكروهاً من الجميع.

علي باي وابنه حمودة: حكم علي باي بن حسين تونس بين ١٧٥٩-١٧٨٢. ونحن نذكر ذلك هنا لأن كلاً من أحمد بن عمار وحموده بن عبد العزيز كتب تاريخ حياته ومدحه وعاش في بلاطه. عاش علي باي فترة اضطراب في تونس. ثم التجأ مع أخيه محمد إلى الجزائر. ولا ندري إن كان ابن عمار قد تعرف عليه أثناء لجوئه إلى الجزائر. ومهما كان الأمر فقد رجع الأخوان إلى تونس وحكمها محمد فترة قصيرة (١٧٥٦-١٧٥٩) ثم تولى علي حوالي ربع قرن. وقد عرف عهده بالاستقرار النسبي وتشجيع العمران والتعليم والأدب.

(١) تحقيق محمد ماضور، القسم الأول، تونس، ١٩٧٠، إلى الآن لا نعرف العلاقة بين التاريخ الباشي (أي تاريخ علي باي الباشا) وبين كتاب ابن عمار في تاريخ الباي نفسه، وهو كتاب مفقود فأى الكتابين أسبق، وما الفرق بينهما في المحتوى، وهل هناك تداخل أو حتى شك في النسبة.

(٢) كان ابن عبد العزيز كثير الأشعار، وقد ظهر ذلك في (الكتاب الباشي) وكان في بلاط علي باي شعراء آخرون معروفون منهم محمد الورغي وعلي الغراب، وكان هؤلاء متنافسين أيضاً، ولا ندري ما علاقتهم بالشيخ الزائر أحمد بن عمار. انظر محمد الهادي الغزي، الشعر التونسي في العهد الحسيني.

استوزر علي باي بعض الوجوه التي تبدو غير منسجمة مع بعضها، كما يبدو أن أصحابها طموحون غاية الطموح. ولعل الباي نفسه لم يستطع السيطرة على حاشيته. فبالإضافة إلى حمودة بن عبد العزيز الذي أعطاه قلم الإنشاء ورئاسة الكتاب استوزر الباي أيضاً مصطفى خوجة الذي كان غريباً عن البلاد وتقاليدها. فقد قيل إن هذا الوزير جاء إلى تونس مملوكاً من بلاد القرج (القوقاز) وحين تعرف عليه علي باي أعجبه ذكاؤه وقدرته على العمل. فأولاه خطة خزندار، وزوجه ابنته وحين توفيت زوجه أختها. وكان مصطفى هذا في مرتبة الوزير الأول، وبذلك أصبح غريباً لحمودة بن عبد العزيز، وكلا الرجلين كان شيخاً لابن الباي، وهو حمودة الذي سيتولى بعد والده. ويضاف إلى هذه الشخصيات ظهور الوزير يوسف صاحب الطابع الذي سيلعب دوراً بارزاً في عهد حمودة باشا.

تولى حمودة باشا الحكم بعد والده، و طال عهده في الحكم (١٧٨٢-١٨١٤م) (١) ويعتبر عهده في تونس من أكثر العهود استقراراً وإصلاحاً. وتهمنا من عهده السنوات الخمس الأولى فقط. فلقد كان من خلالها تحت تأثير وزراء والده المذكورين، ومنهم حمودة بن عبد العزيز ومصطفى خوجة المتنافسان. ويقال إن خوجة هو الذي كان متهماً بمحاولة اغتيال ابن عبد العزيز. ومهما كان الأمر فإن الباشا قد أمر بتسليم الجاني إلى المجني عليه ليرى رأيه فيه، فحكم عليه حكماً فظيماً وهو تكسير يديه ورجليه وتركه يموت في ساحة القصبه موتاً بطيئاً. وربما هذا هو الذي جعل الناس، والباشا منهم، ينقمون على حمودة بن عبد العزيز فعلته هذه وينبذونه حتى مات هو أيضاً في عزلة وإهانة.

في هذا الجو المشحون بالمؤامرات جاء أحمد بن عمار إلى تونس بقصد الاستيطان بها" كما يقول تلميذه إبراهيم السيلة. فهل خاب أمه، وعاد من حيث

(١) خصه رشاد الإمام بأطروحته الدكتوراة وعنوانها (سياسة حمودة باشا في تونس (١٧٨٢-١٨١٤)، تونس ١٩٨٠. وقد تحدث عن بلاط تونس أثناء حكم علي باي وابنه حمودة.

جاء بعد فترة قصيرة، أي قبل وفاة علي باي؟ أو هل بقي حتى تولى حمودة باشا ومرت السنوات الخمس الأولى بسلام ثم غادر تونس بعد النهاية المأساوية لصاحبه؟ إن الوثائق المتوفرة لا تسعفنا بالجواب الآن. فالتاريخ الوحيد الذي نعرفه بعد ذلك هو سنة ١٢٠٥هـ المسجل على إجازة ابن عمار للمراي. وقد قلنا إن الإجازة ربما كتبت بالحجاز لأنها كانت ضمن قطاع طويل من الورق يضم مجموعة من الإجازات التي حصل عليها المرادي من ابن عمار وغيره.

ومهما كان الأمر فإن دراستنا ستساعدنا على فهم نفسية ابن عمار وعلاقته بابن عبد العزيز وبايات تونس والأسلوب الأدبي الذي تميز به.

نص التقريظ: يعبر التقريظ عن مدح ابن عمار لتأليف (رسالة) من تأليف حمودة بن عبد العزيز، وهو تأليف لا نعرف له عنواناً، ولكنه لا يخرج عن علم الكلام. ونفهم من النص أن المؤلف هو الذي طلب من ابن عمار تقريظ تأليفه. أما تاريخ التقريظ فهو شهر صفر سنة ١١٩٦هـ (١٧٨١م) وهو تاريخ يشير إلى أنه قد مضى على إقامة ابن عمار في تونس بضعة أشهر فقط، كما يشير إلى أن ابن عبد العزيز كان لا يزال في قمة نفوذه وسمعته في البلاط وبين الناس، وقد أفادنا ابن عمار أيضاً أن علي باي (وهو يسميه الملك) كان مريضاً، ودعا له بالشفاء.

ويمكننا تقسيم النص إلى الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: تمثلها الديباجة التقليدية التي استهل بها ابن عمار تقريظه وأظهر فيها براعته وتفننه، وفيها إشارات إلى موضوع الرسالة، والمتأمل في عبارات الديباجة يدرك حتى قبل أن يصل إلى رسالة ابن عبد العزيز - أن موضوعها هو وحدانية الله والحديث عن صفاته التي وصف نفسه "وتجزم بأنك المنفرد بإيجاد الكائنات بالإيجاب ولا وجوب ولا واسطة، والمستبد بخلق العباد وأعمالهم المرضية والساخطة، وبهذا الدين مجاناً للفلاسفة والقدرية الضلال الدناة دنت".

الفقرة الثانية: تبدأ من قوله: "أما بعد" وقد أخبر فيها أن حمودة بن عبد العزيز هو الذي أطلعه على الرسالة (التأليف) التي كتبها "لهذا التاريخ" وهو سنة ١١٩٦ هـ ، كما أشرنا. ثم انطلق ابن عمار يمدح الرسالة نفسها بأوصاف الدقة والتحقيق، مشيراً إلى أنها تضمنت أسئلة كلامية وردت على "الحضرة". وقد مَجَّد ابن عمار صاحب الرسالة ووصفه بأوصاف السلطة وبكونه "زين الوزراء والكتاب" ومطمح الطامحين.

الفقرة الثالثة: تتضمن أيضاً مدح ابن عمار للرسالة وصاحبها. ويبدأ من قوله: "فرايتها قد حازت قصب السبق" وبناء على ذلك فإن الرسالة تجعل صاحبها من شيوخ أهل السنة لاعتمادها على علوم شتى سيما أصول الدين وأصول الفقه ودفاعها عن الدين من وجهة نظر أهل السنة. وقد دعا ابن عمار لصاحب الرسالة بالبقاء من أجل إيالة تونس حتى تشق طريقها به بين الدول. وأخبر أن أمثال ابن عبد العزيز لا يوجد بهم الدهر إلا نادراً.

الفقرة الرابعة: احتوت على القطعة الشعرية ومقدمتها. وكان من عادة ابن عمار أن يمزج تقريظه النثري بأبيات من الشعر. وتتألف القطعة من اثني عشر بيتاً من بحر البسيط، وقد التزم ابن عمار بأربعة أحرف في قافيتها، وهي اللام والياء والهاء والألف وتبدأ بقوله:

شمسٌ تجلت فما أسنى تجليها لاحت على غرة الدنيا تحليها

وقد أثنى فيها أيضاً على الرسالة وصاحبها بعبارات شعرية رقيقة، وقال عن الرسالة بأنها ستجي من واطب على قراءتها.

الفقرة الخامسة: تبدأ من قول ابن عمار: "إيه أيها الساري ولا رفيق...". وهذا الجزء من التقرير ربما يكون أجود ما خطه قلم ابن عمار في هذا الشأن، فقد جاء فيه بمعاني سامية وألفاظ جميلة وصور رائعة وإبداعات من المحسنات

البلاغية، ولكن بأسلوب تميز به في أدبياته، وقد نوه بصاحب الرسالة على أنه من المدافعين عن السنة الشريفة والرايين على الجهلة. واغتم الفرصة ليدعو للباي بالشفاء، ونوه كذلك بولي عهده وبالدولة الحسينية.

ونلاحظ هنا أن عبارة "الدولة" وردت أكثر من مرة في النص وأن عبارة "الأيالة" وردت مرتين فقط. وقد ختم ابن عمار التقرّيز بالدعاء "شموس هذه الدولة المباركة" وهو يشير بذلك إلى الباي وابنه ووزرائه، ومتهم ابن عبد العزيز نفسه. [وسيكون عملنا هو إيراد النص والتعليق عليه بما نراه مفيداً، كالإشارات التاريخية والأعلام، ونحو ذلك، ونرجو أن نكون بهذا قد وفقنا في تقديم خدمة ولو متواضعة للأدب العربي في بلاد المغرب في عصر كان المعتقد فيه أنه عصر جمود وركود ثقافي، سيما في الجزائر وتونس العثمانيّتين.

نص التقريظ

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

نحمدك اللهم يا واجب الوجود، ولا واجب لذاته إلا أنت، ونشكرك يا خالق العالم بالاختيار ومقتضى الحكمة والرحمة والجود، إذ كنت في أزلك ولا عقول ولا نفوس ولا (اصطقصات)^(١)، وأنت الآن على ما عليه كنت. وتشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك شهادة حق واطأ الجنان فيها اللسان ما شككت فيها ولا منّت، ونجزم بأنك المنفرد بإيجاد الكائنات بلا إيجاب ولا وجود ولا واسطة، والمستبد بخلق العباد وأعمالهم المرضية والساخطة. وبهذا الدين مجانياً للفلاسفة والقدرية الضلال الدناة دنت^(٢).

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمداً عبدك ورسولك الذي فتقت رتق الكائنات من نوره، ورتبت ظهورها على ظهوره وأدرت المملكة على قطبه ولها به زنت، اللهم صلي وسلم عليه وعلى وآله وأصحابه، مستجلي شمس المنيرة ومنتجعي سحابه، الذين نزهتهم عن صفة القصور والتقصير في نصرته وصننته، وأنزلت عليه في حقهم فيما رحمة من الله لنت، وارض اللهم يا كريم عن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان. وعن العلماء الراسخين الذين شرفتهم بمعرفتك التي كرمت بها نوع الإنسان، وما شوهتهم برذيلة الجهل ولا شنت، واغفر اللهم لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات المسلمين والمسلمات ما أسروا وما أعلنوا وما أسررت وما أعلنت.

أما بعد، فقد أطلعني الفاضل النحرير صاحب القلم الأعلى والقدر المعلى في التبشير والتحرير زين الوزراء والكتاب، وروض الرائد الأنف ونجعة المنتاب، والنبية النبيل السنظار، مرقى أغراض المستفيدين والمسترشدين في العلوم

(١) ما بين القوسين كلمة لم نستطع قراءتها، وهي تتضمن الحروف "اصطقصات" لم نهتد إلى معناها إن كانت صحيحة.

(٢) قلنا إن موضوع التقريظ هو رسالة في علم الكلام، ونلاحظ ذلك في عبارات ابن عمار في هذه الديباجة.

والمعارف ومطمح الأنظار، والشفوف والتبريز، السيد حمودة بن محمد بن عبد العزيز، صانه الله وأبقاه، وإلى أوج المعالي والكمالات رقاءه، على الرسالة^(١) المحسنة، المنقحة المحررة، التي لهذا التاريخ أملاها، وأولاها من باهر التحقيق والتدقيق ما أولاها وضمنها أجوبة عن أسئلة كلامية^(٢) وردت - كما ذكر أعزه الله - على الحضرة^(٣) ذات البهجة والنظرة^(٤). فنظرتها بعين الدقة والأوصاف، مجانياً للتعصب والتعسف شيمة سليمي الصدر كاملي الأوصاف، فرأيتها قد حازت قصب السبق في مضمار الإجابة وميدان الإصابة، وانتظمت هي ومؤلفها مع شيوخ أهل السنة^(٥) ومؤلفاتهم المحررة في تلك العصابة، وشهد له - أدامه الله وأدام النفع به - برسوخ القدم في المعارف وسعة الاطلاع، وكمال التلمي من العلوم خصوصاً الأصليين وما يتعلق بها وقوة الاضطلاع، فانه جل جلاله يبقيه زينة لهذه الإيالة السعيدة وهذه الدولة^(٦) تصول به ويصول بها على الدول وكتابها أعظم صولة، فإن مثله - أعزه الله - لخليق أن يباهي به وأين مثله حتى يباهي به ويفتخر، ولعمري لقد خباه الدهر إلى هذا العصر وادخر، وما أحقه بقول أبي العلاء المعري عند من وفقه الله إلى الإنصاف وأرشدته، وكأنما على لسانه أنشده:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

وعندما خسر طرفي لملاحظتها راعياً، وكرّ من ملاحظتها راجعاً، ضربت يدي لمبايعتها بالترئيس في يدها، وصدعت بما يميل من عطفها ويطيل من غيدها،

(١) كذا دون عنوان، ولا تعرف من وصفها غير ابن عمار، ولابن عبد العزيز حاشية على عقائد السنوسي أيضاً.

(٢) بالإضافة إلى موضوع العقائد العام، أجاب ابن عبد العزيز على ثماني رسائل وردت من علماء قسنطينة، الجزائر، انظر أحمد عبد السلام (المؤرخون التونسيون)، مرجع سابق، ص ٢٩١.

(٣) "الحضرة" قد يكون قصد بها المجلس العلمي لحمودة بن عبد العزيز أو البلاط عموماً، ثم أجاب عنها هو.

(٤) كذا، ولعلها النظرة.

(٥) نفهم من هذا أنها تدور حول العقائد الأشعرية أيضاً.

(٦) أي الدولة التونسية الحسينية، دول علي باي.

ورفعت عقيرتي مقرظاً لمحاسنها ومادحا، وعلى أغصان روض أجادتها الغناء
ومجادتها الغراء صادحا، بقولي:

شمس تجلت فما أسنى تجليها
أبدت مطالعها أسنى طوالها^(١)
قوى^(٢) بها عضد التوحيد مُنشئها
دلست معالمها على إبايتها^(٣)
مواقف يكبر السنظام مدخلها
بته أبكار أفكار شفعت بها
قوت القلوب وإحياء النفوس لمن
صحائف نقح التجريد حاصلها
اسطغ ببرهانها المنخول واسم إلى
فالله يحرس منشئها ويُسكنه
يا ليت شعري بماذا من محاسنه
لا زال ينظم في جيد الإيالة^(٤) من

لاحت على غرة الدنيا تحليها
من أين للشمس تجلي في مجالها
فالسعد يكتبها والفخر يملئها
ومن إشارتها لاحت معالمها
وهي النجاة لمن أضحي يوالها
تملي علينا فما ألقى أمالها
(بيغي)^(٥) مقاصدها والحق يعليها
يبلي الزمان ولا يستطيع يبلها
شمس المعارف في اسمي تجليها
من جنة الخلد في أعلى أعاليها
أنتي (وإن عمرت)^(٦) أوقات مُملئها
در المحاسن ما يحكي لأليها

إيه، أيها الساري ولا رفيق إلا التوفيق، ويا أيها الشاري خذ أحرار النفوس،
فكل لذلك الطبع الرقيق رقيق. هكذا هكذا، وفي عين الشاني القذا. اطلع شمس
معارفك وعوارفك في أفلاك البراعة والاتقان. وزين سماء رياستك من فضائك
وفواضلك بأبهى من النجوم الزاهرة والذبرقان، وعيش بأنوارها أعين عمش
الجهالات والعشي، ووش بأنوائها رياض المحاسن والمحامد أبدع وشي، جادل
عن الملة الحنيفية بلسانها، وجالد بسيف السنة ودافع بإحسانها، وخذ من جاني
الجهل الصائل بالثار، واصدع بتحقيقاتك وتدقيقاتك فذلك شعار وهذا دثار،
واقخر وجر رداء العز والسؤود فأنت زينة المصر بل العصر، واهصر أغصان

(١) في الأصل (طولعها).

(٢) في الأصل (قوى).

(٣) كذا مرسومة تقريبا في الأصل، وما زال اللفظ والمعنى والوزن غير دقيق في نظرنا.

(٤) ما بين القوسين كلمة اجتهدنا في تخريجها على ذلك النحو (بيغي) لأنها غير واضحة في الأصل.

(٥) ما بين القوسين تعبير قرأناه على النحو المذكور ولكنه غير واضح في الأصل.

(٦) الإيالة هي الولاية أو الإقليم الإداري في العهد العثماني، وكانت الكلمة شائعة بالنسبة للجزائر وتونس.

الرياسة بالدولة الحسينية^(١) واجن ثمارها فأنت أهل لذلك الهصر، وشفى الله الملك السعيد^(٢) وحيأ ابنه الأمير السيد حمودة الحميد^(٣) فقد رميا منك الكتابة ببديعها، وسقيا روض الوزارة منك بمطر نيسانها وغيث ربيعها، فأخصبت بك مروجها بعد الاجداب، وحييت رسومها الماحلة بغرر تلك الآداب، والله جل جلاله يبقي شمس هذه الدولة المباركة الميمونة معززة ببدرك، ويطلعها منك على تلك المناقب الثواقب حتى تقدرك حق قدرك، ويحفظ كمالك على المستفيدين والمسترشدين حتى تتملى صدورهم وتتشف أسماعهم ببنات فكرك ونفقات صدرك إن شاء الله تعالى.

(١) نسبة إل الحسين بن علي مؤسس العائلة وقد حكم بين ١١١٧-١١٥٣ (١٧٠٧-١٧٤٠). وقد استمرت العائلة

في حكم تونس إلى سنة ١٩٥٧ حين اختارت تونس النظام الجمهوري بعد الاستقلال.

(٢) هو علي باي (الباشا) الذي حكم بين ١٧٥٩-١٧٨٢.

(٣) كان حمودة عندئذ وليا للعهد. وحكم بين ١٧٨٢-١٨١٤، كما أشرنا سابقاً.

والسلام على حضرتكم العلية وسيادتكم الباهرة الجليلة، ما انعقد بين
المتناسيين وداد، ونبذوا زخرف الواشين فجروا على السداد^(١)، ورحمة الله
وبركاته، ما تعاقبت سكنات الكون وحركاته. وكتب غبار نعال العلماء
والأشراف، ومثار الإضاعة والإسراف، غريق الأوزار، أقل الخلائق أحمد بن
عمار لطف الله به^(٢). بتاريخ أواسط صفر الخير من شهور سنة ستة وتسعين
ومائة وألف.

(١) لعسل في هذه العبارات إشارة إلى وجود التحاسد وتوتر الجو بين ابن عبد العزيز وزملائه، وربما كان ابن
عمار يخشى أن يشمله ذلك أيضاً ومن ثمة الإشارة إلى "زخرف الواشين".

(٢) كان ختم ابن عمار عندما كان مفتياً يحمل هذه العبارة: "الوائق بالجبار عبده أحمد بن عمار" وروى أبو راس
الناصر الذي لقي ابن عمار شخصياً وتلمذ عليه أنه كان يضع على ختمه هذه العبارة "سليل الأشراف
الصالحين، وخالصة مجد النقي والدين" انظر: أبو راس الناصر (فتح الإله)، تحقيق محمد عبد الكريم،
الجزائر، ١٩٨٠.

مراجع البحث

- ١- أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، ج٧، تحقيق: أحمد عبد السلام، تونس، ١٩٧١.
- ٢- أحمد بن عمار، (نبذة) من رحلته نحلة اللبيب نشرها محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٠٣.
- ٣- إبراهيم السبالة، مباسم الأزهار ودوحة الأفكار، مخطوط رقم ٢٦٠، المكتبة الوطنية، تونس.
- ٤- أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرون ١٧، ١٨، ١٩، تعريب أحمد عبد السلام، وعبد الرزاق الحليوي، تونس ١٩٩٣.
- ٥- إسماعيل التميمي، الرد على الوهابية، تونس، (فيه رسالة مسألة وقف لابن عمار).
- ٦- أبو راس الناصر، فتح الإله ومنتته، ك٢٢٦٣، الخزانة العامة- الرباط، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، ١٩٩٠.
- ٧- أبو القاسم سعد الله، "الرحلات الجزائرية الحجازية" في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج١، ط٣، بيروت، ١٩٩١.
- ٨- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة عن (إجازة ابن عمار لمحمد المرادي)، الجزائر، ١٩٨٢.
- ٩- الحسين الورتلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، (رحلة)، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٠٨.

- ١٠- حمودة بن عبد العزيز، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٧٠.
- ١١- رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس ١٧٨٢-١٨١٤، تونس، ١٩٨٠.
- ١٢- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات، جزآن، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٣- عبد الرزاق بن حمادوش، لسان المقال في النبا عن الحساب والنسب والأل (رحلة)، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ١٩٨٣.
- ١٤- كارل بروكلمان، ذيل تاريخ الأدب العربي، ٦٨٨، SUP II.
- ١٥- محمد بدير، التعريف بنسب الأسرة البيرومية بتونس، تاريخ تيمور ١٤٣٤، دار الكتب القومية، القاهرة.
- ١٦- محمد بيرم الرابع، الجواهر السنية في شعر الديار التونسية، تحقيق الهادي حمودة الغزي، تونس ١٩٧٣.
- ١٧- محمد الحاج صادق، المولد عند ابن عمار (بالفرنسية)، دمشق، ١٩٥٧.
- ١٨- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، القاهرة، ١٩٢٩.
- ١٩- محمد النيفر، عنوان الأريب، جزآن، تونس، ١٣٥١.
- ٢٠- محمد الوزير السراج، الحلل السندسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، أجزاء، تونس ١٩٧٠.

٢١- الهادي حمودة الغزي، الأدب التونسي في العهد الحسيني،
تونس، ١٩٧٤.

٢٢- محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار،
تحقيق على الزواري ومحمد محفوظ، جزآن، بيروت، ١٩٨٨.

٢٣- المهدي، البوعبدلي، مراسلة بتاريخ ٧ يناير ١٩٨٢.

٢٤- Devoux, Albert, Les, edifices religieux a Alger, Alger, ١٨٧٨.